مقدمة

هناك شبه وثيق بين القصور التى حظيت بحكم استبدادى ، وهذا الشبه بيِّن على الرغم من اختلاف الزمان والمكان ، ومن أهم العناصر التى تبرز فى هذه القصور أن سادتها من الحاكمين لا يعنون إلا بتثبيت عروشهم ولا يتحرجون من أجل ذلك أن يَسجنوا ، وأن يفتكوا بالأبرياء ، وأن يذيقوا رعاياهم البؤس والعذاب الأليم .

ومما تمتاز به هذه القصور أيضا أنها تحوى دائما أناساً لا همّ لهم إلا الدسّ والإيقاع ، وتضم جماعات تكيد كل جماعة للأخرى . وأن تيارات الدسائس والمؤامرات بها تشيع وتنساب دون توقف أو نكوص .

ومن العناصر الهامة فى هذه القصور ، الأثرة الحادة التى توحى للحاكم أنه كل شىء ، وأن الدولة ملكٌ له ، خلقت لذته وإسعاده فى حياته ، ثم يورثها أبناءه بعد موته ؛ وهذه الأثرة لا تقتصر على الخلفاء والملوك ، وإنما تنتقل إلى البطانة والحاشية ، فيعمل كل فرد فى القصور على أن يأخذ لنفسه وذويه أكبر قسط من النفع والمتاع .

ويندر أن يدخل الحب والتعاطف هذه القصور أو هذه الأوكار كما يحسن أن تسمى ، ويغلب أن تكون العلاقة بين الحاكم وآله مطبوعة بالطابع العدائى الكريه .

والمجون والخلاعة ، والانحلال الخلقى بأبشع صوره ، مظهر هام من مظاهر هذه الحياة ، وما أيسر على سادة القصور ، أن ينسوا شعوبهم ومسئولياتهم ، بل أن ينسوا أنفسهم وكرامتهم ، ليستجيبوا لداعى الهوى ، وليغمسوا من الأخمص إلى المفرق بين الكاس والطاس ، والعود الألحان ، والجوارى والقيان .

وأخيرا وليس آخرا — كما يقولون — فإن سادة هذه القصور يسرهم أن يبنوا مجدهم على أشلاء الأعداء والأشياع جميعا .

وقد أتيح لى — كباحث فى التاريخ — أن أعيش فى مجموعتين من هذه القصور فرّقت بينهما مئات السنين ، وجمّعت بينهما الملامح والمميزات التى لا تتخلف ، ولا تختلف .

وكانت المجموعة الأولى قصور العباسيين ؛ فقد كان ضمن عملى بجامعة القاهرة أن أقوم بتدريس تاريخ الدولة العباسية ، فعرضت لقصور العباسيين بالدراسة والتحليل ، ولم أقنع بما عنى به أغلب المؤرخين من دراسة الحياة الظاهرة كمجالس الأدب والشراب والغناء . . . وإنما أضفت إلى ذلك بحث التيارات الخفية فى هذه القصور ، وما كان يدب فى نفوس أصحابها من انفعالات ، وما كان يدور فى تلك القصور من دسائس ومؤامرات .

أما المجموعة الثانية فهى قصور أسرة محمد على فى مصر ، وقد ظهر لى من قراءة تاريخ اسماعيل وتوفيق ومن مشاهداتى للحياة المصرية فى عهدى فؤاد وفاروق أن التاريخ يعيد نفسه ، وأن قصور هؤلاء ليست إلا صورة صادقة لقصور أولئك ، تجمع هذه وتلك الملامح سالفة الذكر ، وأغلب الظن أن هذه المجموعة من القصور هى التى أوحت لى بدراسة التيارات الخفية فى المجموعة الأولى ، وليسمح لى القارىء أن أصدقه القول ، وأن أنقل له أحاسيسى ؛ وبخاصة أنها أصبحت تاريخا ومن الواجب علينا أن ندوّن التاريخ ؛ لقد كنت أقوم بتدريس هذه المادة فى عهد فاروق ، وكان طلابى ونحن نكشف الستار عن قصور العباسيين يدركون أن فى ذلك إزاحة للستار عما يجرى فى قصور فاروق ، ويحسون أن ما نقوم به إنما هو إلا صورة من الكفاح غير المسلح ، الذى قام به الشعب المصرى ضد الملك السابق ، هذا الكفاح الذى أسهم فيه الجامعيون بنصيب كبير .

وكنت أعدّ هذه الدراسة لتكون كتاباً ، رجاء أن يذيع الهدف الذى كنت أتطلع إليه ، ولكن حدثت المعجزة وسقط الطاغية على يد الأبطال الأحرار ، ولذلك أخرجته ليكون تاريخاً يكشف عن حياة المجموعة الأولى من القصور ، أما المجموعة الثانية ، فقد عرف العالم عنها منذ ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ الشيء الكثير ، وسيستطيع القارىء فى يسر وسهولة أن يربط بين هاتين المجموعتين .

وهذا البحث اتجاه جديد فى دراسة التاريخ ، فلم توجه العناية فيه إلى الخلفاء أو أعمالهم ، وإنما إلى الدولة وما كان فيها من حركات ، والقصور وما كان فيها من نشاط ، وأرجو أن تصادف هذه الطريقة رضا القراء .

ولم أطل فى وصف المعارك الحربية ، وتنقلات الجيوش ، وما فعله القلب والميمنة والميسرة . . . . فذلك مما لا يُعنى به المؤرخون المحدثون الذين يتجهون فى دراستهم إلى ما ترتب على النصر أو الهزيمة من نتائج أثرت فى دراسة الحضارة ، تلك الدراسة التى يمنحها المؤرخون المحدثون أهمية كبيرة ، ويعدونها التراث الباقى للعهود الماضية ، وقد أوليتُ هذه الحضارة نصيبها من العناية ، وجعلتها تشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة .

وكثيراً ما قابلت روايات متعددة متناقضة عن حادثة واحدة فكنت أعنى باستعراض هذه الروايات ونقدها ، وأختار أدقها مشيراً إلى سواه وإلى أوجه النقد فيه ، وفى خلال مئات الاقتباسات التى سقتها هنا مسندة إلى مراجعها ، سيجد القارىء إننى حاولت جاهدا أن أحسن عرضها ، وأن أقدم لها ، وأنقدها ، وأعلق عليها ، كما حاولت أن أربط بينها رجاء أن تبدو كأنها خطت بقلم مؤرخ واحد لم يتتبعها من عشرات المراجع .

ومراجع هذا الكتاب هى : (١) كتب التاريخ كالطبرى وابن الأثير والعبر لابن خلدون ، والمعارف ، والإمامة والسياسة لابن قتيبة ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ، وغيرها ، وقد أعتمدت عليها فى سرد الأحداث التاريخية ، (٢) وكتب التراجم والأدب ، وقد اسهمت فى هذا الكتاب بنصيب كبير ، وكان عليها المعول فيما ورد فيه من نقد ومقارنة ، ومن تصوير للحضارة الإسلامية فى تلك الحقبة ، لهذا سيقابل القارىء من حين إلى آخر اقتباسات من الأغانى والعقد الفريد والكامل والأوراق للصولى وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى والمستطرف للابشيهى ومحاضرات الأدباء ... (٣) والفصل الرابع استمد مادته من كتب علم النفس ؛ مما كتبه Adler و Hadfield وغيرهما . كما احتاجت الموازنة التى عقدتُها فى هذا الفصل إلى مجموعة كبيرة من كتب الموازنات كالمحاسن والأضداد للجاحظ ، والمحاسن والمساوىء للبيهقى ، وثمرات الأوراق لابن حجه الحموى . وغيرها مما ورد ذكره فى مكانه .

وكان استاذى بجامعة كمبردج يذكر لنا أن الباحث فى التاريخ ينبغى أن يحاول أن يبعث الروح من جديد فيما يعرض من أحداث ، حتى يبدو التاريخ وقد دبت فيه الحياة مرة أخرى ، وذلك بالمقارنة ، وعرض الماضى الذى يمكن أن يُستَفع به فى الحاضر والمستقبل ، وصياغة التاريخ فى قالب جذاب من ناحية الأسلوب ، ومن ناحية اختيار المشكلات التى تستهوى القارىء لتكون إطارا يوضع التاريخ فى ثناياه ، ولست أدرى إلى أى مدى قد نجحت فى تحقيق هذه الغاية ؛ ولكن الذى أقرره أننى حاولت وثابرت وبذلت الجهد .

وقد جرت المؤامرات والدسائس التى ذكرت هنا بإيعاز الخلفاء المسلمين ، أو فى ظلهم ، ولذلك كان من الضرورى أن نوضح نقطة هامة ؛ هى أن الإسلام شىء وهؤلاء المسلمون شىء آخر ؛ ومصادر التشريع الإسلامى وأولها القرآن الكريم تنحى باللائمة وتزجر بعنف من اغتاب أونمّ ،ومن مشى بالسعاية والوشاية ، وتهدده بالثبور والبوار : قال تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه »[1] وقال « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »[2] وقال صلى الله عليه وسلم :(لا يدخل الجنة نمام) وقال: (الساعى غاش وإن قال قول المنتصح) وقال عمرو بن عبيد لرجل يستمع إلى آخر يغتاب : ويلك !! نزّه أذنك عن استماع الخنا ، كما تنزه لسانك عن النطق به .

اما إزهاق الأرواح البريئة وقتل الناس بدون حق ، فقد وقف منه القرآن موقفا حازما ، يحذر من يحاول أن يقترف هذا الإثم وينذره ، قال تعالى« ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذاباً عظيما[3] » .

وعلى هذا فمن قام بالوشاية أوشجعها، أوقتل النفس الحرام بدون حق، فهو إنما يفعل ذلك متمرداً على الدين الحنيف وعلى تعاليمه السمحة ،

« ١ » سورة الحجرات الآية رقم ١٢

« ٢ » سورة الحجرات الآية رقم ٦

« ٣ » سورة النساء الآية رقم ٩٣

وهذا هو تاريخ حقبة من الزمن مضت منذ أكثر من ألف عام ، وها نحن أولاء نردد هذا التاريخ فيما نكتب وفيما نحاضر : فنسجل للمحسن إحسانه ، وللمسيء إساءته ؛ ونشيد بالأيادى والمنن التى قدمها الحاكمون إلى شعوبهم ، ونلوم وننقد من أساء إلى قومه أو سعى فيهم بالفساد ، فليدرك صانعو التاريخ فى العالم كله أن التاريخ لا ينسى ، وأنه يقظ يدوّن عليهم كل ما يفعلون دون أن يشعروا ، ويسجل أفعال الخير والشر دون أن ينتبهوا ، وسيعرض التاريخ صفحتهم هذه على الأمم والأجيال القادمة بما فيها من محاسن ومساوىء .

وليدرك صانعو التاريخ كذلك أنهم لن يفلتوا من عقاب التاريخ إن أساءوا ، وهم إن أفلتوا من عقاب الناس ، فإن أبناءهم وأحفادهم سيحملون هذا العقاب مراً قاسياً ؛ وقد عوقب مروان بن محمد الخليفة الأموى الأخير بذنب لم يجنه هو ، وإنما جناه سابقوه من خلفاء الأمويين الذين كانوا إلى الانحلال اقرب ، وتحمل الخلفاء العباسيون الذين جاءوا بعد الواثق تبعة الخطأ الذى وقع فيه جدهم المعتصم ، وتحمل فاروق وزره ووزر آبائه واجداده .

وبعد ، هذا جهد متواضع جداً أقدمه لعشاق الدراسات الإسلامية راجياً أن أكون قد وفقت بعض الشيء فيما ذهبت إليه .

وما التوفيق إلا بالله عليه أتوكل وإليه أنيب .

المعادى فى ٦ يناير ١٩٥٤

أحمد عبد الله الشلبى
مدرس التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة